دستويفسكي وجريمة قتل الأب

بقلم سيجموند فرويد
ترجمة سمير كرم

يمكن ان تتميز في شخصية دستويفسكي الخصبة اربعة وجوه : الفنان الخالق ، والعصابي ، والآثم . فكيف يستطيع المرء ان يجد طريقه في هذا التعقيد المحير ؟

الفنان الخالق في دستويفسكي اقل هذه الوجوه اثارة للشك : فمكانة دستويفسكي لاتبعد كثيرا عن مكانة شكسبير . والاخوة كارامازوف اعظم رواية كتبت على الاطلاق ، وعرض شخصية المحقق الكبير – في هذه الرواية – وهو احد قمم الادب في العالم ، لايمكن الا ان يقدر تقديرا فائقا . وعلى التحليل النفسي – للاسف – ان يلقي بأسلحته امام مشكلة الفنان الخالق .

اما الاخلاقي في دستويفسكي فهو الاكثر قابلية للتناول . فاذا كنا نريد ان نضعه في مكانة عالية كأخلاقي ، بدعوى ان الانسان الذي نفذ خلال اعماق الخطيئة هو الذي يستطيع فحسب ان يبلغ اعلى قمة للاخلاق، فاننا بذلك نهمل نقطة شك تقوم ازاء هذا ، فالرجل الاخلاقي هو الانسان الذي يستجيب للاغراء بمجرد ان يشعر به في قلبه ، دونما تأجيل . اما الانسان الذي يخطىء بصورة متعاقبة ، ثم يبلغ تبكيت ضميره مستوى اخلاقيا عاليا ، فانه يترك نفسه عرضة للتأنيب على انه فعل اشياء هينة عليه . فهولم يحقق جوهر الاخلاق – أي الاحجام – لان السلوك الاخلاقي في الحياة اهتمام عملي . انه يذكرنا بأحد برابرة جماعات الرحل الكبرى ، الذي ارتكب جريمة القتل وكفر عنها ، حتى اصبح التكفير وسيلة فعلية للتمكين من ارتكاب جريمة القتل . وكان ايفان الرهيب يسلك بنفس الطريقة تماما ؟ والحق ان هذا التعريض بالاخلاق سمة روسية مميزة . كما لم يكن النتاج النهائي لكفاح دستويفسكي الاخلاقي شيئا عظيما للغاية . فبعد الصراعات العنيفة للتوفيق بين المطالب الغريزية للفرد ومطالب الجماعة ، استقر الى وضع انتكاس هو الخضوع لكل من السلطتين الزمنية والروحية ، توقير كل من القيصر والاله المسيحي والقومية الروسية بمعناها الضيق – وهذا وضع كان يبلغه ضعاف العقول بمجهود ضئيل . وهذه هي نقطة الضعف في تلك الشخصية العظيمة . لقد قذف دستويفسكي بعيدا بالفرصة التي اتيحت له لان يصير معلما للانسانية ومحررا لها ، وجعل من نفسه احد سجانيها .ولن يكون على مستقبل الحضارة الانسانية الا القليل يشكره عليه ، بل يبدو انه كان من المحتمل ان يلام على فشله الذي سببه عصابة * . وربما تكون عظمة ذكائه وقدرة حبه للانسانية قد فتحت له طريقا اخر ذا رسالة في الحياة .

اما النظر الى دستويفسكي كآثم او كمجرم فانه يثير معارضة شديدة، لاتحتاج لان تكون مبنية على تقدير مادي للجريمة . وسريعا مايصبح الدافع الحقيقي الى هذه المعارضة واضحا . فهناك سمتان جوهريتان في المجرم : انانية لاحدود لها وباعث هدام قوي ، ومن الاشياء العامة في كلتا هاتين السمتين ، ومن الشروط الضرورية للتعبير عنهما ، انعدام الحب والافتقار الى التقدير العاطفي للموضوعات ((الانسانية)) . وان المرء ليتذكر على الفور التعارض الذي يمثله دستويفسكي مع هذا – أي حاجته الشديدة الى الحب وقدرته الهائلة على بذل الحب ، تلك التي يمكن رؤيتها في مظاهر العطف المبالغ فيه والتي تسببت له في ان يحب وان يساعد حيث كان حقا له ان يكره وان ينتقم ، كما كانت الحال في علاقته – مثلا – مع زوجته الاولى وعشيقها ، ولما كان الامر كذلك، فلا بد من ان نسأل لماذا كان هناك ايماز لعد دستويفسكي بين المجرمين. والاجابة ان هذا ينشأ عن اختياره لمادة كتاباته ، ذلك الاختيار الذي يتميز عن كل الشخصيات العنيفة الاجرامية الانانية الاخرى ،والذي يشير بهذا الى وجود بدل مماثلة في نفسه ، والذي يتميز ايضا عن حقائق معينة في حياته ، مثل غرامه بالمقامرة وتسليمه الممكن بالاعتداء الجنسي على فتاة صغيرة . ويحل هذا التناقض ادراكنا ان غريزة الهدم القوية عند دستويفسكي ، التي ربما تكون قد جعلت منه – بسهولة – مجرما ، كانت موجهة في حياته الفعلية اساسا ضد شخصه هو ((الى الداخل بدلا من الخارج)) . وهكذا كانت تجد تعبيرا عنها كنزعة ماسوشية واحساس بالذنب . ومع ذلك احتفظت شخصيته بقدر كبير من السمات السادية ، التي تظهر في انفعاليته ، وحبه للايلام ، وعدم تسامحه حتى نحو الناس الذين يحبهم ؟ تلك السمات التي تظهر ايضا في الطريقة التي يعامل بها – كمؤلف – قراءه ، وهكذا كان في اشياء قليلة ساديا نحو الاخر وفي اشياء كثيرة ساديا نحو ذاته ، اي انه كان في الحقيقة ماسوشيا ، وبعبارة اخرى انه كان ارق وأرحم وأنفع شخص يمكن تصوره .

لقد اخترنا ثلاثة عوامل من شخصية دستويفسكي المعقدة ، احدها كمي والاخرين كيفيين : حدة حياته الانفعالية غير العادية ، واستعداداته الغريزية الجامحة التي كانت تميز فيه – بصورة لا تتغير – كونه ((ساديا ماسوشيا)) او مجرما ، وتميز فيه ايضا موهبته الفنية التي تستعصي على التحليل ، وهذه الرابطة قد توجد بالفعل دون ان يوجد العصاب ! وهناك اناس ماسوشيون تماما دون ان يكونوا عصابيين . ومع ذلك فان توازن القوى بين مطالبه الغريزية ، وضروب الكف التي تعارضها ((أي معظم وسائل الاعلاء)) ربما تجعل من اللازم تماما اعتبار دستويفسكي مايعرف ((بالشخصية الغريزية)) . غير ان الوضع يزيده غموضا ان يوجد في نفس الوقت العصاب الذي لم يكن – كما قلنا – محتوما في تلك الظروف وانما يوجد ذلك العصاب الذي كلما ازدادت القابلية له كلما ازداد التعقيد الذي ينبغي السيطرة عليه بواسطة الانا . لان العصاب ليس – فوق كل شيء – الا علامة على ان الانا لم ينجح في تكوين مركب ، ذلك انه في محاولته للقيام بهذا قد اضاع وحدته .

كيف اذن – اذا دققنا القول – يظهر عصابه ؟ لقد كان دستويفسكي يسمي نفسه مصروعا ، وكان الناس يعتبرونه كذلك ، نظرا لنوباته الحادة التي كانت تأتي مصحوبة بفقدان الشعور ، وتصلبات عضلية يتبعها هبوط . والان اصبح من الاكثر احتمالا ان ما كان يسمى صرعا لم يكن الا عرضا من اعراض عصابه ، وينبغي ان يشخص تبعا لذلك بانه صرع هستيري ، أي بانه هستيريا حادة . ونحن لانستطيع ان نكون على يقين تام من هذه النقطة لسببين : اولا لان معلوماتنا عن تاريخ صرع دستويفسكي

---

* هذا البحث كتبه فرويد عام ١٩٢٨ – وهو الفصل الحادي والعشرون من المجلد الخامس من مجموعة كتابات فرويد – طبعة ١٩٥٩ . «المترجم»

* العُصاب Neursis ، الاضطراب الوظيفي ، ذو الاصل النفسي لا العضوي الذي يحدث في الجهاز العصبي . وهو يمثل ظاهرة صراعية ، ذات اصل غريزي في الغالب في رأي مدرسة التحليل النفسي. « المترجم »

المزعوم قاصرة وغير موثوق بها ، وثانيا لان فهمنا للحالات المرضية المرتبطة بنوبات ذات مظهر صرعي فهم ناقص .

ولنتناول النقطة الثانية اولا . ومن غير الضروري هنا ان نعرض مرض الصرع كله ، لان ذلك قد لايلقي ضوءا حاسما على المشكلة . لكننا نستطيع ان نقول الاتي : ان مرض الجنون المقدس القديم مازال ينظر اليه كشيء مرضي ظاهري ، على انه ذلك المرض الشديد بحركاته التشنجية التي لاتحصى ، والتي لايمكن في الظاهر تهدئتها ، وتغييره للشخصية نحو العنف والعدوانية ، وهبوطه المستمر بجميع الملكات العقلية ، غير ان الخطوط العامة لهذه الصورة تفتقر تماما الى الدقة .. فان النوبات، اذ تكون عنيفة في هجومها ، مصحوبة بقضم اللسان والعجز عن ضبط القبول ، وبلوغ الحالة الصرعية الخطيرة بما فيه من خطورة الحاق الاضرار القاسية بالذات ـ هذه النوبات يمكن ، مع ذلك ، ان تقل الى درجة ان تقتصر على الفترات الوجيزة من الغيبوبة او المرور السريع بهجمات الدوار ، او قد تحل محلها فترات زمنية قصيرة يقوم فيها المريض بشيء خارج عن شخصيته كما لو كان واقعا تحت سيطرة اللا شعور . هذه النوبات ، رغم انها تتحدد عامة بطريقة لانفهمها بأسباب جسمية بحتة ، قد تكون مدينة بمظهرها الاولي الى بعض الاسباب العقلية البحته « كالخوف مثلا » او قد تكون استجابة في جوانب اخرى لتنبهات عقلية، وايا ماكان العجز الذهني صفة مميزة لمعظم الحالات السائدة ، فان حالة واحدة على الاقل معروفة لنا « وهي حالة هلمهولتز »(١) لم يتدخل الكدر فيها في الوظائف الذهنية العليا ، « الحالات الاخرى التي تحمل نفس التأكيد اما ان تكون قابلة للاخذ والرد او عرضة للشكوك مثل حالة دستويفسكي نفسه » . وقد يعطينا الناس الذين وقعوا ضحية للصرع انطباعا بالبلادة ووقوف التطور ، تماما كما يصاحب المرض غالبا بلاهة واضحة وعيوبا مخية جسمية ، حتى ولو لم يكن ذلك جزءا من الصورة المرضية . الا ان هذه النوبات ، بجميع انواعها ، تحدث ايضا لاناس اخرين ممن يبدون تطورا عقليا كاملا والى جانب ذلك يبدون حياة انفعالية مفرطة غير خاضعة لسيطرتهم بدرجة كافية . ولا عجب انه وجد ان من المستحيل ـ في هذه الظروف ـ التأكيد بان الصرع شيء مرضي واحد، ويبدو ان التشابه الذي نجده في الاعراض الظاهرة يستدعي ان ننظر اليها نظرة وظيفية . فهي تبدو كما لو كانت ميكانيزما لتنفيس مرضي غريزي تم بطريقة عضوية ، ويمكن استخدامه في ظروف مختلفة تماما سواء في حالة اضطرابات النشاط المخي الراجعة الى اصابات الانسجة او الاصابات التسممية . وكذلك في السيطرة غير المتكيفة على الاقتصاد العقلي (٢) . وفي الاوقات التي يبلغ فيها نشاط الطاقة التي تعمل في العقل درجة التازم . ووراء هذا الانقسام نجد لمحة من وحدة الميكانيزم السائدة في التنفيس الغريزي . وهذا الميكانيزم لايمكن ان يقف بعيدا عن العمليات الجنسية التي هي اساسا ذات اصل تسممي . لقد وصف الاطباء الاوائل الجماع بانه صرع مصغر ، وعلى هذا كانوا يدركون في الفعل الجنسي صورة مخففة او مكيفة للطريقة الصرعية للتنفيس عن الحافز .

ورد الفعل الصرعي ـ كما يمكن ان نسمي هذا المبدأ العام ـ هو ايضا واقع تحت سيطرة العصاب الذي يقوم على مبدأ التخلص بوسائل جسمية من كميات الاثارة التي لايمكن ان يتعرض لها نفسيا . وهكذا تصبح النوبات الصرعية عرضا من اعراض الهستيريا ، تتكيف وتتعدل بواسطتها، كما تتكيف وتتعدل بواسطة العملية الجنسية العادية ـ للتنفيس ـ ومن ثم فمن الصحيح ان نميز بين صرع عضوي ، وصرع « وجداني » . والدلالة العملية لهذا هي ان الشخص الذي يعاني صرعا من النوع الاول مصاب بمرض في المخ ، بينما الشخص الذي يعاني صرعا من النوع الثاني يكون عصابيا . في الحالة الاولى تكون حياته العقلية خاضعة لاضطراب متحول من الخارج ، وفي الحالة الثانية يكون الاضطراب تعبيرا عن حياته العقلية نفسها .

ومن المحتمل جدا ان صرع دستويفسكي كان صرعا من النوع الثاني ولا يمكن اثبات هذا ، اذا شئنا الدقة في القول . فعلينا لكي نثبت ذلك ان نكون في وضع يسمح لنا بادماج بدء ظهور النوبات وما يتبعها من تقلبات في خيط حياته العقلية ؟ ونحن لانعرف الا اقل القليل في هذا الصدد . فان وصف النوبات نفسها لايعلمنا شيئا ، كما ان معلوماتنا عن العلاقة بين نوبات دستويفسكي وخبراته معلومات ناقصة ومتناقضة . والافتراض الاكثر احتمالا هو ان تلك النوبات كانت تعود الى فترة بعيدة في طفولته ؟ وان علينا ان نتناولها على انها بدات باعراض اخف وانها لم تتخذ صورة العصاب حتى بعد محنة الصدمة التي تلقاها في سن الثانية عشرة اي مقتل ابيه . وقد يكون هناك الكثير مما يمكن ان يقال عن هذه النقطة اذا ماثبت ان تلك النوبات انقطعت تماما اثناء منفاه في سيبيريا ، غير ان بعض الاراء تناقض هذا (٣) .

ان الصلة التي يمكن احظاؤها بين قاتل الاب في الاخوة كارامازوف ومصير والد دستويفسكي نفسه قد هزت اكثر من واحد من كتاب التراجم

(١) هلمهولتز Helmholtz Ludwing « ١٨٢١ ـ ١٨٩٤ »
عالم طبيعي وفسيولوجي ألماني ، قام بالتدريس بجامعات المانيا المختلفة. وهو احد مكتشفي مبدأ ضغط الطاقة ومخترع جهاز الاونتالما سكوب « ١٨٥٠ » وله ابحاث في ميكانيزمات الابصار والسمع .. يفهم من سياق حديث فرويد انه كان مصابا بحالة صرعية . « المترجم » .

(٢) المقصود بالاقتصاد العقلي عند مدرسة التحليل النفسي هو خلق وتوزيع واستهلاك الطاقة العقلية بما يتفق مع مبدأ المنفعة الاكبر باقل مجهود ممكن . «المترجم »

(٣) انظر الحاشية على الصفحة التالية

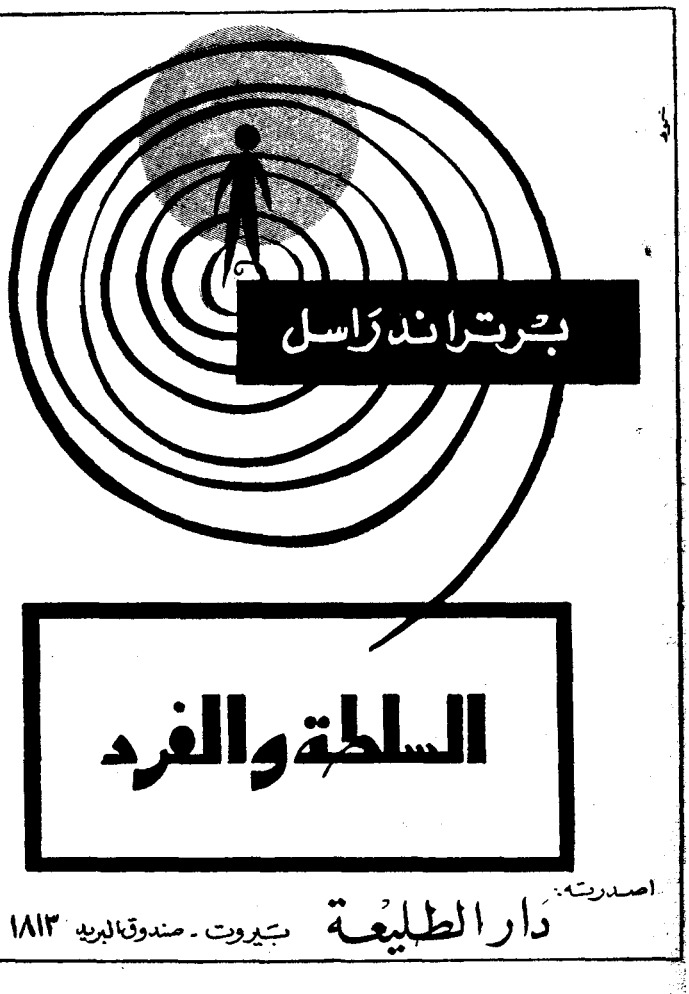

وادت بهم الى الرجوع الى « مدرسة حديثة معينة في علم النفس » . فمن وجهة نظر التحليل النفسي « وهذه المدرسة هي المقصودة » نجدنا مدفوعين لان نرى في ذلك اقسى صدمة ، وان تعتبر رد فعل دستويفسكي عليها نقطة التحول في عصابه . لكني اذا ماتعهدت بالبرهنة على هذه الوجهة على اساس من التحليل النفسي فانني اكون ملزما بان اخاطر بان اصبح غامضا بالنسبة لجميع اولئك القراء غير المعتادين على لغة التحليل النفسي ونظرياته .

لدينا نقطة انطلاق معينة اكيدة ؟ فنحن نعلم معنى الهجمات الاولى التي عانى منها دستويفسكي في اعوامه الاولى ، قبل وقوع الصرع بزمن طويل . وقد كان لهذه الهجمات دلالة الموت : اذ كان ينذر بها خوفا من الموت ، وكانت تتالف من حالات من السبات والغفوة . وقد دهمه المرض اولا بينما كان مايزال صبيا ـ في صورة اكتئاب مفاجيء لااساس له، وشعور ـ قال عنه اخيرا لصديقه ـ بانه ، كما لو كان على وشك ان يموت على التو . والحقيقة انه قد تبعت هذا حالة مماثلة للموت الحقيقي . يقول لنا شقيقه اندريه ان فيدودر الصغير كان معتادا ـ حتى في اوقات صحته ـ ان يترك الى جانبه وريقات صغيرة قبل ان يذهب للنوم ، يقول فيها انه ربما يسقط اثناء الليل في حالة من النوم الشبيه بالموت ، وكان يرجو من ثم ان يؤجل دفنه خمسة ايام . « فيلرب ـ ميللر وايكشتين ، ١٩٢٥ » .

ونحن نعلم مغزى ومقصد هذه النوبات الشبيهة بالموت . فهي تدل على تقمص شخص ميت ، سواء كان شخصا ميتا بالفعل او كان شخصا مايزال على قيد الحياة ولكن ترغب الذات في موته . والحالة الاخيرة هي الاكثر اهمية . فعندئذ يكون للنوبة قيمة العقاب . فالمرء كان يرغب في ان يموت شخص اخر ، والان اصبح هو هذا الشخص الاخر ، وقد امات نفسه . في هذه النقطة تعمد نظرية التحليل النفسي الى التاكيد بان هذا الشخص الاخر يكون عادة بالنسبة للصبي اباه . وان النوبة «التي اصطلحنا على تسميتها بانها هستيرية » انما هي عقاب للذات على رغبة في الموت موجهة ضد اب مكروه .

ان قتل الاب ـ تبعا لوجهة نظر معروفة ـ هو الجريمة الاساسية والاولية للبشرية ، وكذلك للفرد « انظر مقالاتي عن الطوطم والتابو ، ١٩١٢ ـ ١٩١٣ » . وهو على اية حال المصدر الرئيسي للشعور بالذنب، رغم اننا لانعرف ما اذا كان هو المصدر الوحيد : فالابحاث لم تصبح بعد قادرة على ان تثبت ـ في تعيين ـ الاصل العقلي للذنب والحاجة الى التكفير : الا انه ليس من الضروري لهذا المصدر ان يكون المصدر الوحيد . فالموقف النفسي معقد ويتطلب ايضاحا . ان علاقة الصبي بابيه هي ـ كما نقول ـ علاقة متناقضة ambivalent فبالاضافة الى الكراهية التي تهدف الى التخلص من الاب كمنافس ،يوجد عادة ـ ايضا ـ قدر من الحنين له . وهذان الموقفان الذهنيان يرتبطان ليخلقا تقمصا لشخص الاب ، فيود الصبي ان يكون في مكان والده لانه يعجب به ويريد ان يصبح مثله ، ولانه يريد ايضا ان يبعده عن طريقه . ويقف هذا التطور الكلي عندئذ امام عائق قوي . ففي لحظة معينة يصل الطفل الى فهم ان محاولة ابعاد الاب كمنافس قد يعاقب عليها بالخصاء. ومن ثم فانه ـ خوفا من الخصاء ، اي اهتمامه بالاحتفاظ بذكورته ـ يصرف النظر عن رغبته في يإمتلاك امه والتخلص من ابيه . وطالما مكثت هذه الرغبة في اللا شعور فانها تشكل اساس الشعور بالذنب . ونحن نعتقد ان مانصفه الان هنا هو العمليات السوية ، أي المصير السوي لما يسمى « بعقدة اوديب » ؟ ومع ذلك فانه يتطلب اسهابا هاما .

ينشأ تعقيد اخر حينما يكون العامل التكويني الذي نسميه بالثنائية الجنسية bisexeuality متطورا تطورا قويا نسبيا عند الطفل ، لان ميل الطفل عندئذ يصبح ـ تحت تهديد ذكورة الصبي بالخصاء ـ اقوى في الانحراف الى اتجاه الانوثة ، ليضع نفسه في مكان امه، وليقوم بدورها كموضوع لحب ابيه . لكن الخوف من الخصاء يجعل هذا الحل مستحيلا كذلك . فالصبي يفهم ان عليه ايضا ان يخضع للخصاء اذا هو اراد ان يكون محبوبا من ابيه كامرأة . وهكذا فان كلا الدافعين ـ كراهية الاب ، والدخول في علاقة حب مع الاب ـ يعانيان الكبت ، وهناك تفرقة سيكلوجية معينة في الحقيقة القائلة بان كراهية الاب تختفي نتيجة لخطر خارجي « هو الخصاء » ، بينما يعتبر الدخول في علاقة حب مع الاب خطرا غريزيا داخليا ، رغم انه يرجع في اساسه الى نفس الخطر الخارجي .

ان مايجعل كراهية الاب امرا غير مقبول هو الخوف من الاب ، فالخصاء شيء بشع ، سواء كعقاب او كثمن للحب . ومن بين العاملين اللذين يكبتان كراهية الاب ، يمكن ان نسمي العامل الاول ـ اي الخوف المباشر من العقاب والخصاء ـ بانه العامل السوي ؟ ويبدو ان الحدة المرضية لهذه الكراهية لاتحصل الا باضافة العامل الثاني ، أي الخوف من الموقف الانثوي ، وهكذا يصير الاستعداد الجنسي الثنائي القوي احد الشروط الاولية او العوامل المعززة للعصاب ، ولا بد بالتاكيد ان نفترض وجود هذا الاستعداد عند دستويفسكي ، وهو يظهر في صورة يمكن النفاذ اليها « مثل الجنسية المثلية الخفية » في الدور الهام الذي تلعبه علاقات الصداقة مع الذكور في حياته ، وفي موقفه اللين الغريب نحو المنافسين في الحب ، وفي فهمه الملحوظ للمواقف التي لايمكن تفسيرها الا بالجنسية المثلية المكبوتة ، على نحو ماتظهر امثلة كثيرة من رواياته .

شعر

من منشورات دار الاداب

قرارة الموجة	نازك الملائكة
وجدتها	فدوى طوقان
وحدي مع الايام	فدوى طوقان
العودة من النبع الحالم	سلمى الجيوسي
عيناك مهرجان	شفيق معلوف
قصائد عربية	سليمان العيسى
الناس في بلادي	صلاح عبد الصبور
مدينة بلا قلب	احمد عبد المعطي حجازي

دار الاداب

بيروت ـ ص.ب ٤١٢٣

(٣)معظم الاراء ـ بما فيها رأي دستويفسكي نفسه ـ تؤكد على النقيض من ذلك ان المرض لم يتخذ صورته الصرعية النهائية الا في منفاه في سيبيريا . ولسوء الحظ ان لدينا سببا كافيا يدعونا الى الشك في القضايا التي يوردها العصابيون في سيرهم الذاتية ، فالتجربة تبين ان ذكرياتهم تخلق معلومات زائفة ، المقصود بها ايقاف الصلات العرضية المكدرة ، ومع ذلك فيظهر ان من المؤكد ان اعتقال دستويفسكي في المعتقل السيبيري قد غير بشكل ملحوظ ظروفه المرضية .

اني لاسف ـ رغم اني لااستطيع ان اغير الحقائق ـ اذا ماكان يبدو للقراء غير المعتادين على التحليل النفسي ، ان هذا الغرض لمواقف الكراهية والحب نحو الاب ، وتحولها تحت تأثير التهديد بالخصاء ، امر لا يمكن تصديقه ولا معنى له . وعلي ان اتوقع شخصيا ان عقدة الخصاء هي بالتحديد التي لابد ستثير اشد انواع النفور عامة . لكني لااستطيع الا ان اصر على ان خبرة التحليل النفسي قد وضعت هذه العلاقات بصفة خاصة بعيدا عن متناول الشك ، وعلمتنا ان ندرك فيها مفتاح كل انواع العصاب واذن فعلينا ان نطبق هذا المفتاح على مايسمونه صرعا عند كانبنا « دستويفسكي » وانها لبعيدة جدا عن شعورنا تلك الاشياء التي تحكم حياتنا العقلية اللاشعورية !

غير ان ماقيل الى هذا الحد لايستنفد عواقب كبت كراهية الاب في عقدة اوديب ، فهناك شيء جديد ينبغي اضافته : اعني انه ـ بالرغم من كل شيء ـ يتخذ تقمص شخص الاب لنفسه في النهاية مكانا ثابتا في الانا . فهذا التقمص يصل الى الانا ولكنه يثبت نفسه فيه كعامل مستقل متعارض مع باقي محتوى الانا . وعندئذ نطلق عليه اسم الانا الاعلى Super-ego ونسب اليه ـ كوريث لنفوذ الاب ـ اكثر الوظائف اهمية ، فاذا كان الاب جافا وعنيفا وقاسيا ، يتخذ إلانا الاعلى هذه الصفات منه ، وتعود الى الظهور ـ في العلاقات بين الانا وبينه ـ صفة السلبية التي كان من المفروض ان تكبت . لقد اصبح الانا الاعلى ساديا ، فاصبح الانا ماسوشيا ، أي انه اصبح في اعماقه سلبيا بطريقة انثوية . وتتطور حاجة كبيرة الى العقاب في الانا الذي يقدم نفسه ـ من ناحية ـ كضحية للقدر ، ويجد الاشباع ـ من ناحية اخرى ـ في سوء المعاملة التي يلاقيها من الانا الاعلى « أي في الشعور بالذنب » . لان كل عقاب هو تماما خصاء ، وهو ـ بالمثل ـ تحقيق للموقف السلبي القديم نحو الاب . وحتى القدر ايضا لايكون في مظهره الاخير الا اسقاطا اخيرا للاب .

ولا بد ان العمليات السوية في تكوين الضمير مماثلة للعمليات المرضية التي وصفناها هنا . فاننا لم ننجح بعد في تحديد الخط الفاصل بينهما. وسوف نلاحظ ان النصيب الاكبر من الاحداث هنا ينسب الى المودة السلبية للانوثة المكبوتة ، وبالاضافة الى هذا لابد ان يكون من الامور الهامة ـ كعامل عرضي ـ ما اذا كان الاب ـ الذي يخشى منه فيجميع الاحوال ـ هو ايضا عنيفا بشكل ملحوظ في الواقع ، ولقد كان هذا صحيحا في حالة دستويفسكي ، ويمكننا ان نقتفي اثر حقيقة شعوره الغير عادي بالذنب وسلوكه الماسوشي في الحياة لنصل الى مودة انثوية قوية بشكل ظاهر . واذن فالقضية بالنسبة لدستويفسكي هي كما يلي : شخص ذو استعداد قوي خاص للثنائية الجنسية ، يمكنه ان يدافع عن نفسه بدرجة كبيرة من الشدة ضد الاعتماد على اب يتميز بالقسوة . وتقوم خاصية الثنائية الجنسية هذه كشيء مضاف الى اجزاء طبيعته التي ادركناها بالفعل . وعلى هذا يمكننا ان نفهم اعراض النوبات الشبيهة بالموت التي كانت تعتريه مبكرا على انها تقمص للاب في جانب من الانا ، قام به الانا الاعلى كنوع من العقاب . « انك تريد ان تقتل اباك لتصبح انت هو . الان انت أ بوك ، ولكنك اب ميت » ـ ذلك هو ميكانيزم الاعراض الهستيرية المنظم . وبعد ذلك « الان ابوك يقتلك انت » . ان عرض الموت بالنسبة للانا هو اشباع في خيال الرغبة الذكورية وهو في نفس الوقت اشباع ماسوشي ؟ هو بالنسبة للانا الاعلى اشباع عقابي ، أي اشباع سادي . وكلاهما « الانا والانا الاعلى » يقومان بدور الاب .

فاذا اردنا ان نجمل قلنا ان العلاقة بين الذات وموضوعها الابوي قد تحولت ـ مع احتفاظها بمحتواها ـ الى علاقة بين الانا الاعلى ، أي انها دخلت في وضع جديد على اساس جديد . وقد تختفي ردود الافعال الطفلية المماثلة لهذه والناتجة عن عقدة اوديب ، اذا لم يمدها الواقع بغذاء جديد . لكن تظل خصائص الاب هي نفسها ، او هي بالاحرى تستهلك مع مر السنين ، وهكذا تدعمت كراهية دستويفسكي الشديدة لابيه ورغبة الموجهة الموت ضد هذا الاب المافون . وعندئذ يكون من الخطير ان يحقق الواقع مثل هذه الرغبات المكبوتة . فقد اصبح الخيال واقعا . وتدعمت جميع الوسائل الدفاعية بناء على ذلك . فالان قد اتخذت نوبات دستويفسكي طابعا صرعيا ، وهي تدل مع ذلك على تقمصه لشخص ابيه كنوع من العقاب ، لكن هذه النوبات اصبحت مريعة مثل موت ابيه المخيف نفسه ، اما عن المحتوى الاخر الذي شملته ـ وبخاصة المحتوى الجنسي ـ فانه يستعصي على التخمين .

هناك شيء واحد ملحوظ هو انه : في لحظة النذير بالنوبة الصرعية يعاني المريض لحظة واحدة من الغبطة الفائقة . وقد يكون هذا بالفعل تسجيلا للشعور بالانتصار او الشعور بالتحرر يحسه المريض اذ يسمع انباء الموت ، يتبعه فورا اقسى انواع العقاب على الاطلاق . وقد تكهنا توا بمثل هذين الشعورين المتناليين : بالانتصار ثم بالفجيعة ، بالابتهاج السار ثم بالحزن عند الاخوين اللذين يقتلان اباهما في العشيرة البدائية ، ونجد ان ذلك يتكرر في احتفال وجبة الطوطم . فاذا ماثبت لنا بالنسبة لحالة دستويفسكي انه كان قد تخلص من نوباته في سيبيريا ، فان ذلك لايقيم الا البرهان على وجهة النظر القائلة بان نوباته كانت هي عقابه . فانه لم يعد في حاجة اليها حينما كان يعاقب بطريقة اخرى . غير انه لايمكن اثبات هذا ، فالاحرى ان هذه الحاجة الضرورية الى العقاب من جانب الاقتصاد العقلي لدستويفسكي يفسر الحقيقة القائلة بانه قد اجتاز بشكل سليم هذه الاعوام من البؤس والذل . لقد كان الحكم على دستويفسكي بالاعوام ـ كسجين سياسي ـ حكما ظالما ، ولا بد انه كان يعلم ذلك ، لكنه قبل هذا العقاب الذي لم يكن يستحقه بين يدي الاب البديل ـ القيصر ـ كعوض عن العقاب الذي يستحقه على خطيئته ضد ابيه الفعلي . فهو بدلا من ان يعاقب نفسه ، عوقب بواسطة بديل ابيه. وهنا نجد لمحة من التبرير النفسي للعقاب الذي يوقعه المجتمع . فمن الحقيقي ان جماعات كبيرة من المجرمين تشتاق الى العقاب . يطلبه الانا الاعلى عندهم ، وهو بهذا ينقذ نفسه من الحاجة الضرورية الى ان يوقع العقاب بنفسه .

١ ـ كل من اعتاد على التحولات المعقدة للمغزى الذي تسوده الاعراض الهستيرية سيمكنه ان يفهم انه لايمكن القيام هنا بمحاولة لتتبع مغزى نوبات دستويفسكي الذي يكمن وراء هذه البداية .(٤) ويكفي اننا قدندعي ان مغزاها الاصلي ظل كما هو لم يتغير بعد جميع انواع التزايد الاخيرة . ويمكننا ان نقول مطمئنين ان دستويفسكي لم يتحرر اطلاقا من الشعور بالذنب الذي كان ينشأ عن نيته في قتل ابيه . كما كان هذا الشعور بالذنب يحدد ايضا موقفه في مجالين مختلفين اخرين كانت علاقة الابوة بينهما العامل الحاسم ، موقفه نحو سلطة الدولة ونحو الايمان بالله . وقد انتهى في الموقف الاول من هذين الموقفين الى خضوع كامل لابيه البديل ـ القيصر ـ الذي اخرج معه في الواقع كوميديا القتل التي كانت نوباته تمثلها غالبا في صورة تمثيل . وهنا كانت للتفكير اليد العليا . اما في مجال الدين فقد احتفظ لنفسه بحرية اكبر : فطبقا للتقارير التي تبدو موثوقا بها كان يتذبذب بين الايمان والالحاد . لقد جعل عقله العظيم من المستحيل عليه ان يتغاضى عن اي من الصعاب العقلية التي يؤدي اليها الايمان . لقد كان يأمل ان يجد مخرجا وتحررا من الذنب في المثل الاعلى المسيحي ، وان يستفيد ايضا مما يعاني من الام كوسيلة لان يلعب دورا شبيها بدور المسيح ،

ـ التتمة على الصفحة ٧٥ ـ

(٤) انظر « الطوطم والتابو » (١٩١٢ ـ ١٩١٣) : ان احسن الاراء في مغزى وم ضمون النوبات التي كانت تنتابه هو الذي ذكره دستريفسكي نفسه ، حينما قال لصديقه ستراخوف ان انفعاليته وقمع هذه الانفعالية بعد نوبة صرعية كانا راجعين الى حقيقة انه كان يبدو لنفسه مجرما ، ولم يكن يستطيع ان يتخلص من شعوره بانه يحمل عبء ذنب مجهول ، بأنه ارتكب خطأ عظيما وكان هذا الشعور يرهقه (فولوب ميلر ١٩٢٤ ص ١١٨٨) ويرى التحليل النفسي في مثل هذه الاتهامات الموجهة للذات دلالات على ادراك « الواقع النفسي » وهو يجاهد ليجعل الذنب المجهول للشعور معلوما له .

دستويفسكي وجريمة قتل الاب

ـ تتمة المنشور على الصفحة ٤٨ ـ

وذلك عن طريق اجمال فردي للتطور في تاريخ العالم . فاذا لم يكن ـ على العموم ـ قد حقق الحرية ، واصبح رجعيا ، فقد حدث ذلك لان الذنب النبوي ـ الموجود في الكائنات البشرية عامة ، والذي ينبني عليه الشعور الديني ـ قد بلغ عنده درجة فردية فائقة في شدته وظل من غير الممكن حقا لذكائه العظيم ان يتغلب عليه . ونحن اذ نكتب هذا نجعل انفسنا عرضة للهجوم باننا مزقنا نزاهة التحليل ، واننا اخضعنا دستويفسكي لاحكام لا يمكن تبريرها الا من وجهة النظر المتميزة لفلسفة معينة في الحياة . وقد يأخذ المحافظ جانب « المحق الكبير » ويحكم على دستويفسكي بطريقة مختلفة . وهذا الاعتراض سليم ، ولا يستطيع المرء الا ان يقول في ملاطفة ان قرار دستويفسكي يحوي كل دليل على انه قد تحدد بفعل عملية كف inhibition عقلية ترجع الى عصابه .

لا يمكن بسهولة ان نرجع للصدفة كون اكبر الاعمال الادبية فيجميع الازمان ـ ماساة اوديب لسوفوكليس ، وهاملت شكسبير ، والاخوة كارامازوف لدستويفسكي ـ تتعرض كلها لنفس الموضوع ، اي قتل الاب . وفضلا عن ذلك نجد الاعمال في الثلاثة ان الدافع الى ارتكاب ذلك ـ وهو المنافسة النسبية على المراة ـ معروض بشكل صريح .

ان اكثر الامور صراحة هو بالتاكيد تمثل الدراما المشتقة منالاسطورة اليونانية . ففيها ايضا نجد ان البطل نفسه هو الذي يرتكب الجريمة. لكن المعالجة الشعرية تكون مستحيلة دون تهذيب وتخفيف . فالاعتراف المكشوف بنية ارتكاب جريمة قتل الاب ـ على نحو ما وصلنا اليه في تحليلنا ـ يبدو غير محتمل بدون اعداد تحليلي . فالدراما اليونانية تقدم ـ مع احتفاظها بالجريمة ـ التخفيف اللازم للعبارات ، بطريقة فنية بواسطة اسقاط الدافع اللاشعوري للبطل في الواقع في صورةاكراه من القدر قد انتقل اليه . يرتكب البطل فعلته بدون قصد ، وهو يرتكبها في الظاهر تحت تاثير امراة ؛ ويؤخذ هذا العنصر الاخير ـ مع ذلك ـ في الاعتبار ، في الظرف الذي يستطيع فيه البطل فحسب ان يصل الى امتلاك الملكة الام بعد ان يكون قد كرر فعلته على التنين الذي يرمز للاب . والبطل ، بعد ان يتكشف ذنبه ويصبح شعوريا ، لا يقوم باي محاولة لمسامحة نفسه بالاستشهاد بالحيلة المصطنعة عن قهر القدر . انه يسلم بجريمته ويعاقب عليها كما لو كانت قد تمت على مستوى شعوري تماما ـ وهو ما يبدو لعقلنا ظلما ، وان يكن صحيحا تماما من الناحية النفسية .

اما في المسرحية الانجليزية (٥) فالتمثل غير مباشر اكثر من ذلك،فالبطل لا يرتكب الجريمة بنفسه ، انما الذي نفذها شخص اخر ، لا تعتبر الجريمة بالنسبة له جريمة قتل اب . فالدافع الحقي للمنافسة الجنسية على المراة لا يحتاج من ثم الى تخفيف . ونحن نرى ـ فضلا عن ذلك ـ عقدة اوديب عند البطل في ضوء معكوس حينما نعلم الاثر الواقع عليه من الجريمة التي ارتكبها الاخر . فلا بد له ان ينتقم لهذه الجريمة ، ولكنه يجد نفسه عاجزا ـ بصوت غريبة ـ عن ذلك . ونحن نعلم ان شعوره بالذنب هو الذي يعوقه ؛ غير ان الشعور بالذنب يفسح مكانا ـ بطريقة تتمشى تماما مع العمليات العصابية ـ لادراك عدم كفايته لإنجاز مهمته . فهناك دلائل على ان البطل يحس بالذنب كفرد فائق . انه يحتقر الاخرين بدرجة لا تقل عن احتقاره لنفسه .

(٥) يقصد هاملت . (المترجم)

(٦) الاخوة كارامازوف . (المترجم)

اما الرواية الروسية (٦) فتخطو خطوة ابعد في نفس الاتجاه ، ففيها ايضا ترتكب الجريمة بيد انسان اخر . مع ذلك فهذا الشخص الاخر تربطه بالرجل المقتول نفس علاقة البنوة التي تربطه بالبطل ديمتري ؛ ودافع المنافسة الجنسية في حالة الشخص الاخر معترف به صراحة ؛ انه اخو البطل ، وانها لحقيقة ملحوظة ان دستويفسكي قد نسب اليه مرضه هو ـ اي الصراع المزعوم ـ كما لو كان يسعى الى الاعتراف بان الجانب الصرعي ـ اي العصابي ـ فيه كان مرتكبا جريمة قتل الاب . ثم توجه ـ ثانية ـ في مرافعة الدفاع في المحكمة ـ النكتة الشهيرة التي قيلت للحط من قيمة علم النفس ـ وهي التي تقول « السكينة التي تقطع في الاتجاهين » : وانها لقطعة رائعة من التمويه، فاننا لا نملك الا ان نعكسها لنكشف المغزى العميق لنظرة دستويفسكي الى الاشياء . انها مسئلة لا تستحق المبالاة ان نعرف من ارتكب الجريمة فعلا ؛ فعلم النفس لا يهتم الا بان يعرف من كان يرغب في ارتكابها بكل عواطفه ومن الذي رحب بها حينما وقعت . ولهذا السبب يعتبر جميع الاخوة ، باستثناء شخصية اليوشا المناقضة ، مذنبين بنفس القدر ، الشهواني المتهور ، والشكي الساخر ، والمجرم الصرعي(٧). في الاخوة كارامازوف يوجد مشهد خاص ظاهر . ففي مجرى الحديث بين ديمتري والاب سوزيما يدرك الاخير ان لدى ديمتري استعدادا لارتكاب جريمة قتل الاب فينحني عند قدمي ديمتري . فمن المستحيل ان يكون المقصود بهذا التعبير عن الاعجاب ، بل لا بد ان المقصود ان هذا الرجل الموقر يرفض اغراء الازدراء المجرم وابغاضه ، ولهذا السبب يضع من نفسه امامه . والحقيقة ان تعاطف دستويفسكي نحو المجرم تعاطف لا حدود له ، انه يتجاوز حد الشفقة التي قد يثيرها فينا الشقي المسكين ، ويذكرنا « بالخوف المقدس » الذي كان ينظر به الى المصروعين والمجانين فيما مضى . المجرم عنده هو في الاغلب مخلص ، تحمل بنفسه الذنب الذي كان ينبغي ان يحمله اخرون . ولا حاجة بالمرء بعد ذلك لان يقتلها طالما انه (اي المجرم) قد قتل فعلا ، ولا بد للمرء ان يعترف بالجميلله، لان المرء كان يمكن ان يجبر نفسه على القتل ـ باستثناء الحالة بالنسبة للمجرم . وليس هذا مجرد عطف رحيم ، انما هو تقمص قائم على اساس دافع اجرامي مماثل ـ وهذه الحقيقة نرجسية مموهة بعض الشيء . (ونحن اذ نقول ذلك لا نسيء الى القيمة الاخلاقية للعطف) وربما يكون هذا بوجه عام ميكانيزم التعاطف الودي مع الناس الاخرين ، وهوميكانيزم يستطيع المرء ان يدركه بسهولة تامة خاصة في حالة الروائي الواقع تحت وطاة الشعور بالذنب . ولا شك ان هذا التعاطف عن طريق التقمص كان عاملا حاسما في تحديد اختيار دستويفسكي للموضوع . فقد تعرض اولا للمجرم المادي (الذي تكون دوافعه انانية) ثم المجرم السياسي والديني ، وهو لم يبق حتى نهاية حياته دون ان يرجع الى المجرم الاصلي ، قاتل الاب ، وان يستخدمه في عمل فني ليدلي باعترافه هو .

لقد القى نشر كتابات دستويفسكي بعد وفاته ، ونشر يوميات زوجته، ضوءا ساطعا على حادثة هامة في حياته ، اعني الفترة التي قضاها في المانيا حينما كان مدفوعا في هوس الى المقامرة ، ذلك الحدث الذي لم يستطع احد ان يعتبره الا نوبة من الهوى المرضى لا يمكن اخطاؤها. ولم تكن هناك حاجة الى تبريرات لهذا السلوك الملحوظ الغير لائق .فكما يحدث غالبا مع العصابيين ، اتخذ عبء الذنب عند دستويفسكي شكلا ملحوظا كعبء الدين . وكان في مقدرته ان يعتصم وراء حجة انه كان يحاول ان يجعل بامكانه ـ بواسطة مكاسبه على الموائد ـ ان يعود الى روسيا دون ان يقبض عليه دائنوه . غير ان هذه لم تكن اكثر ونبيلا بدرجة كافية ليسلم بها . فقد كان يعلم ان الشيء الرئيسي هو

(٧) يقصد ديمتري دايفان وسميردياكوف على التوالي .(المترجم)

(٨) كتب في احد خطاباته : « اقسم ان الشره للمال لا شأن له عندي باللعب ، رغم ان الله يعلم اني بحاجة الى المال » .

من حجة ؛ وكان دستويفسكي دقيقا بدرجة كافيـــة ليدرك الحقيقة ، القمار لا بل القمار نفسه ـ اللعب للعب (٨). وكل تفاصيل سـلوكه اللامعقول الاندفاعي تظهر هذا وتظهر اكثر منه . انه لم يكن يستريح ابدا حتى يفقد كل شيء . كان القمار بالنسبة له طريقة اخرى لمعاقبة الذات . كان يعطي لزوجته الضعيفة ـ يوما بعد يوم ـ وعدا او كلمـة شرف الا يعود للعب ، والا يعود للعب في ذلك اليوم خاصة ؛ وكان ـ كما تقول هي ـ يحنث بوعده دائما . وحينما كانت خسائره تودي به وبها دائما الى ابشع حالات الحاجة ، كان يستمد من هذا اشباعا مرضيا ثانيا . اذ كان يستطيع عندئذ ان يسب ويهين نفسه امامها ، وان يدعوها لان تحتقره وان تحس بالاسف لانهـا تزوجت مثل هـــذا الخاطىء العجوز ، وحينما كان يخفف العبء عن ضميره بهذا ، يبـدأ الامر كله مرة اخرى في اليوم التالي . وعودت الزوجة الصغيرة نفسها على هذه الدائرة ، لانها لاحظت ان الشيء الوحيد الذي كان يمثـــل املا حقيقيا في الخلاص ـ اي انتاجه الادبي ـ لم يكن يستمر بصوت افضل مما تكون الحال حينما يكونا قد فقدا كل شيء ورهنـــا اخر ممتلكاتهما . وهي لم تكن ـ بالطبع ـ تفهم الصلة . فحينما كانتتشبع شعوره بالذنب انواع العقاب التي يوقعها على نفسه ، كانت ضـروب الكف التي تقع على عمله تصير اقل قسوة ، وكان يسمح لنفسه ان يتخذ خطوات قليلة في طريق النجاح .

فما هو ذلك الجزء من طفولة مقامر طمرت طويلا ، ذلك الذي يشق طريقه الى التكرار في اندفاع الى اللعب ؟ يمكننا ان نتنبأ بالاجـابة دون صعوبة من قصة لاحد كتابنا الشبان . فان ستيفان زفايج ، الذي خصص ـ عرضا ـ دراسة عن دستويفسكي نفسه (١٩٢٠) ، قد ضمن مجموعة من ثلاث قصص له (١٩٢٧) قصة يسميها « اربع وعشرون ساعة في حياة امراة » . هذا العمل الادبي الصغير لا يقوم في الظاهر الا لسببين ماذا تكون حالة امراة غير مسئولة ، والى اي حدود الافراط ـ التي تدهشها حتى هي ـ يمكن ان تسوقها تجربة غير متوقعة . لكن القصة تحكي لنا شيئا اكثر من ذلك . فانها اذا خضعت لتفسير تحليلي ، فسوف نكشف انها تمثل (دون تعمد مقصود) شيئا مباينـا تماما ، شيئا انسانيا بشكل عام ، او هو بالاحرى شيء خاص بالذكور. ومثل هذا التفسير واضح الى ابعد حد ، لدرجة انه لا يمكن دحضه . فمـن الخصائص المميزة لطبيعة الخلق الفني ان المؤلف (٩)ـ وهو صديق شخصي لي ـ كانت له القدرة على ان يؤكد لي ـ حينما سألته ـ ان التفسير الذي وضعته له كان تفسيرا غريبا تماما على علمه ومقصده ، رغم ان بعض التفسيرات الواردة في السرد كانت تبدو موضوعة بصورة معبرة لتعطي معناها للسر الخفي .

في هذه القصة تخير المؤلف سيدة مسنة عن تجربة مرت بهـــا منذ اكثر من عشرين عاما مضت . ترملت بينما كانت لا تزال صغيرة السن واما لولدين لم يكونا وقتئذ في حاجة اليها ، وحينما كانت في الثانية والاربعين ، ولم تكن تامل من الحياة شيئا ، حدث ـ في احدى رحلاتها التي لا تهدف الى شيء ـ ان ذهبت في زيارة الى صالات مونت كارلو. وهناك بين الانطباعات الواضحة التي يخلقها جو المكان ، سريعا ما فتنت بمنظر يدين كانتا تفضحان كل مشاعر المقامر المنحوس في صدق ووضوح شديدين . هاتان اليدان كانتا يدي شاب صغير وسيم ـ والمؤلفيجعله في نفس عمر الابن الاكبر للرواية ، رغم ان ذلك لم يات منه عمدا ـ هذا الشاب ، بعد ان يفقد كل شيء ، يترك الصالة فيحالة من اليأس العميق بنية واضحة لانهاء حياته اليائسة في حدائق الكازينو . فيدفعهـــا احساس من التعاطف لا يمكن تفسيره الى ان تتبعه وان تبذل كـل مجهود لانقاذه . فياخذها الى احدى السيدات اللجوجات الشائكات هناك ويحاول ان يتخلص منها ؛ ولكنها تمكث معه وتجد نفسها مضطرة ـ بطريقة طبيعية بقدر الامكان ـ الى مشاركته حجرته في الفنـدق ، والى مشاركته فراشه في النهاية . وبعد ليلة الحب المرتجلة هذه تاخذ عهدا وثيقا من الشاب الذي كان في الظاهر قد هدأ ، بأنه لن يعود الى اللعب ابدا ، فتمده بالمال اللازم لمصاريف رحلة عودته الى موطنه، وتعده ان تقابله عند المحطة قبل قيام قطاره . ومع ذلك فانها تبدأ عندئذ تحس بحنين كبير اليه ، يجعلها تشعر باستعداد للتضحية بكـل ما تمتلك في سبيل الاحتفاظ به ، فتقرر ان تذهب معنـه بدلا من ان تودعه . وتعطلها بعض المصادفات السيئة فلا تلحق بالقطـــار . وفي شوقها الى الصديق المفقود تعود مرة اخرى الى الصالات ، وهنـــاك ـ في اندهاش ـ ترى ثانية اليدين اللتين اثارتا عطفها ، كان الشـاب الخئون قد عاد الى اللعب . فتذكره بوعده لها ، لكنه ـ مدفوعا بهواه الذي يسميه رياضة خاسرة ـ يطلب منها ان تنصرف عنه ، ويلقي اليها بالنقود التي حاولت بها ان تنقذه . فتهرع بعيدا في حزن عميق وتعلم في النهاية انها لم تنجح في انقاذه من الانتحار .

هذه القصة المصاغة في عبقرية ، والخالية ودافعها من الخطأ ، هي بالطبع قصة كاملة في ذاتها ، ومن المؤكد انها تترك اثرا على القارىء . غير ان التحليل يبين لنا ان ابداعها مبني على خيال مليء بالرغبة التـي تنتمي الى فترة البلوغ ، التي يتذكرها عدد من الناس تذكرا شعوريا . يجسد هذا التخيل رغبة صبي في ان تطلعه امه بنفسها على الحيـــاة الجنسية لتنقذه من المضار البشعة التي يسببها الاستمناء (ان العدد الهائل من الاعمال الابداعية التي تعرض لموضوع الفداء يكون لها نفس الاصل) . ويحل هوس القمار محل « رذيلة » الاستمناء ؛ وهذاالتحول يفضحه التاكيد على النشاط الافتعالي لليدين . فالرغبة العارمة فـي اللعب تعادي الدافع القديم الى ممارسة الاستمناء ، و « اللعب » هي الكلمة الفعلية التي تستخدم في التربة لوصف نشاط اليدين فياعضاء التذكير . وان الطبيعة التي لا تقاوم للاغراء ، والحلول السليمة التي كثيرا ما تفشل ، واللذة المخدرة والضمير الفاسد الذي ينبىء الذات انها تهدم نفسها (بارتكابها الانتحار) ـ كل هذه العناصر تبقى كما هي في عملية الابدال . ومن الحقيقي ان قصة زفايج تاتي على لســـان الام لا على لسان الابن . فلا بد ان مما يطري الابن ان يفكر : « لو علمت اميفقط اية اخطار يحملها لي الاستمناء ، لانقذتني بالتاكيد منها بان تسمح لي ان اصرف كل ميولي في جسدها هي » . كما ان معادلة الام مع احدى البغايا ـ التي يضعها الشـــاب في القصة ـ ترتبط بنفس التخيل . انها تدخل الشيء الذي لا يمكن بلوغه مع ما يمكن بلوغه بسهولة . والضمير الفاسد الذي يصاحب هذا التخيل هو الذي يؤدي الى النهاية الالية للقصة . ومن المهم ايضا ان نلاحظ كيف ان المصير الذي يعطيه الكاتب للقصة يهدف الى انكار مغزاها التحليلي ؛ فمـا هو موضع للتساؤل الى حد بعيد ما اذا كانت تسود حياة النســـاء الشبقية دوافع مفاجئة وغامضة . وعلى النقيض من ذلك ، يظهرالتحليل دائما غير متكيف للسلوك العجيب من هذه المرأة التي كانت فيما سبق قد هجرت الحب . فقد تسلحت ـ اخلاصا منها لذكرى زوجها الراحل ـ ضد كل انواع الاغراء الماثلة ؛ لكنها وهنا يصدق خيال الابن ـ لم تفلت ـ كم ـ من تحويلها اللاشعوري تماما للحب نحو ابنها ، واستطاع القدر ان يمسكها من هذه الـ نقطة الضعيفة .

فاذا كان الهوس بالمقامرة ـ مع الصراعات الفاشلة لتحطيم هـــذه العادة ، والغرض التي يقدمها لمعاقبة الذات ـ تكرارا للدافع الـــى الاستمناء ، فلن ندهش اذا اكتشفنا ان هذا الهوس بالمقـــامرة يشغل مكانا كبيرا كهذا في حياة دستويفسكي . ونحن لا نجد ـ بعد كل هذا ـ حالات من العصاب الشديد لم يلعب فيها الاشباع الشبقي الذاتي فـي الطفولة والبلوغ دورا ما ، والعلاقة بين الجهود التي تبذل لقمعه والخوف من الاب معروفة جيدا بحيث لا تحتاج الى اكثر من ان تذكر .

القـــاهرة

ترجمة سمير كرم

---

(٩) يقصد ستيفان زفايج . (المترجم)